«طه حسين - رجل وفكر وعصر»
كتاب شمولي، متميز، ومثير للجدل

محمد دكروب

كتاب د. أحمد عُلَبي عن طه حسين كتاب متميّز، وهو - ربما لهذا أيضاً - كتاب مثير للجدل.

الكتاب هذا بعنوان: «طه حسين - رجل وفكر وعصر»(*). وهو يختلف، ويتميّز، عن سائر الكتب العديدة التي صدرت عن طه حسين، في حياته أو بعد وفاته.

ذلك أن تلك الكتب جميعها بحث كلّ منها من جانبٍ منفرد من نتاج طه حسين أو من مراحل حياته: كأن يقتصر الموضوع، مثلاً، على الحديث عن «طه حسين بين أنصاره وخصومه»، أو «طه حسين كما يعرفه كتّاب عصره»، أو «دراسة في نقد طه حسين»، أو ذكريات أديبٍ ما في علاقته بطه حسين، أو «طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه».. أما في حالة توخّي الإحاطة فقد صدر كتاب واحد فقط يتضمّن بيوغرافيا لطه حسين، ذات طابع توثيقي تعدادي.

كتاب د. أحمد علبي يتميّز عن هذه الكتب جميعها في كونه: أول كتاب شمولي يتناول مسيرة طه حسين، حياته ونتاجه ومعاركه الفكرية والتعليمية والسياسية، من جوانبها المتعدّدة، وفي اندماجها العضوي وتفاعلها العميق والمؤثّر في حياة العصر وفي حركة الصراع التحرري الوطني والاجتماعي العام - فهو كتاب ضخم، في ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير، تُشكّل، فقط، الكتاب الأول من ثلاثية ضخمة تحمل، إلى صفتها الشمولية الموسوعية، صفات تُضفي عليها طابع العمل الأدبي، في الصياغة اللغوية، وطريقة العرض، وعنصر التشويق.

- ١ -

يبدأ الكتاب في رسم صورة شخصية / ثقافية لطه حسين الذي ملأ الحياة الثقافية العربية وشغلها طوال أكثر من نصف قرن، ولعب دوراً ريادياً وتأسيسياً في الثقافة العربية الحديثة عامة، وعلى الأخص الجوانب العقلانية التحريرية في هذه الثقافة، وكذلك في الجوانب الأدبية الإبداعية، معاً:

- «إن جبهة طه حسين العالية التي ظلّت ملساء حتى الرحيل، أطلّت على المثقفين العرب، بل على الجمهور الواسع، مرتفعة ملهمة هادية طوال ثلاثة عقود - وظلّ طوال حياته هذه رجل مجابهة وتحدٍّ - وهو رجل ثقافة مقاتل - ورجل معارك فكرية وسياسية في سبيل الحرية والتقدم - وطه حسين هذا، الذي يقارع الجمود والمحافظة وسبات العصور، يتسلّح بالعلم ليصيب من الجهالة والزيف مقتلاً - وهو يهوى المغامرة ويتطلّع إلى حلبات الصراع، وقد حفلت حياته بالعراك النقدي يخوضه غير هيّاب بل يلذّ له ويشتاق - ولأن طه حسين رجل ثقافة مقاتل، فإن عِلْمه الذي هو الشجرة اقترن بعمله الذي هو الثمرة..» (ص: ٧ و ٨ و ٩ و ١٢).

ويستمر د. عُلبي في استكمال رسم الصورة الشخصية - الفكرية لطه حسين الذي رصد معاركه وثورته لتحرير العقل من الأغلال والأدب من العبودية.. فيحاول تكثيف مسار حياة طه حسين الصاخبة هذه بقوله: «.. فمنذ ارتحل طه عن الصعيد لِيَفِدَ إلى الأزهر، ثم بارحه سئِماً ليلج الجامعة المصرية، الوليدة للتوّ، دارساً، وليرجع إليها، إثر عودته من فرنسا، محاضراً فعميداً فرئيساً.. منذ بداياته وعَبْر مختلف المناصب العلمية والسياسية الحسّاسة التي تولّاها، والصحف التي نثر في صفحاتها أفكاره في الأدب والاجتماع

(*) صدر عن دار الآداب، بيروت ١٩٨٥ في ٥٩٢ صفحة من الحجم الكبير.

والدين والسايسة، وخلال عشرات الكتب التي أخرجها للناس، نعثر عند طه على كَلَفٍ بإيقاظ العقول وتوْقٍ إلى رَجِّها. . » (ص: ٨).

. . بهذه الصفات، أي بهذا الاندماج بين الفكر والعمل، بين إعلان الرأي والتصدّي للدفاع عنه مهما كانت العواقب المنتظرة. . لم يكن طه حسين متفرّجاً على التاريخ، بل هو مشاركٌ فعلي، مع الحركة الشعبية في مصر المطالبة بالحرية والاستقلال والتقدم، ومع الحركة الفكرية العاملة من أجل تجديد مصر، في مختلف المعارك النضالية العملية التي تسهم في صنع الأحداث، وفي دفع حركة التاريخ.

وخلال القراءة في فصول كتاب د. عُلبي، يتبيّن للقارىء أن طه حسين لم يكن مجرّد كاتب ضرير منعزل بين كتبه، يستمع إلى من يقرأ له في الكتب فيستوعب ما يسمع، ويُملي على سكرتيره الأفكار والآراء والمواقف واستخلاصات البحث والدراسة والتأمّل. . بل ان هذا القارىء يرى بوضوح، كما في شريط سينمائي ملحمي، كيف أن طه حسين، بهامته المنتصبة وجبهته العالية الملساء، موجود ـ بالفكر والرأي والصوت والجسد والنشاط العملي ـ في مختلف المعارك الأساسية التي خاضها شعب مصر من أجل الحرية، وفي غمار المعارك التي أثارها طه حسين نفسه وخاض أكثرها بإصرار وبقوة في سبيل تحرير العقل واكتساب العلم وإحراز التقدم.

ـ ٢ ـ

الفصول اللاحقة في الكتاب هي محاولة جادّة جاهدة ـ عَبْر التفتيش والتنقيب والبحث والمناقشة والصياغة ـ للبرهنة على مصداقيّة الصفات والآراء والطروحات التي قدّمها د. علبي مكثّفة في بداية كتابه الشمولي هذا عن طه حسين.

ولا بد من التشديد ـ في بداية حديثنا هذا ـ على الصفة العامة، أو النوع الكتابي، الذي ينتسب إليه الكتاب أو يدخل في مجاله، حتى تستوي مناقشتنا معه على هذا الصعيد نفسه، فلا نحاسبه على ما لا ينسبه هو لنفسه. فالكتاب هذا ليس بحثاً في نصوص طه حسين ولا نقداً لهذه النصوص، وإن كانت بعض فصوله لا تخلو من البحث أو النقد. وليس هو ضرباً من الجدال النظري مع نظريات طه حسين ومواقفه، وإن كانت بعض صفحاته تلامس هذا الجدال النظري وتخوض في جوانب منه. وليس الكتاب مجرّد سردٍ لوقائع حياة طه حسين ومراحل مسيرته الصاخبة، وإن كانت هذه الوقائع منثورة في جميع فصول الكتاب.

كتاب د. عُلبي يدخل بوضوح، وبامتياز، إلى مجال كُتب **السيرة**. ولكنه يدخل إلى هذا المجال بأفقٍ من البحث الشمولي المتعدّد المسارات: **فهو سيرة حياة، وسيرة فكر وإبداع، وسيرة حقلٍ ثقافي عام بارتباطه بأحداث العصر وتياراته وصراعاته خلال فترة معيّنة من الزمن.**

في هذا الأفق، لا ينحصر الكتاب، إذن، في موضوع واحد محدَّد من المواضيع المرتبطة بحياة طه حسين أو بنتاجه الفكري والأدبي. بل هو يبحث في مسيرة طه حسين بجوانبها المتعدّدة المتشابكة، وبارتباطها بحركة المجتمع وصراعات العصر ارتباط تفاعُلٍ وفعلٍ معاً، بحيث نتعرّف على مختلف تيارات الفكر والحركات الاجتماعية والنضالات الوطنية ـ والكونية ـ أحياناً ـ في عصر طه حسين، عَبْر العرض الغني والدقيق، وشبه الروائي، لمسيرة طه حسين الشخصية والعامة، وسط غبار المعارك وصخبها.

أفقُ الكتاب هذا اقتضى ترتيباً تتابعياً لأقسامه وفصوله، حسب الترتيب الزمني. . وكذلك اقتضى تركيباً مختلفاً ضمن بعض هذه الأقسام والفصول التتابعية: ففي حين نقرأ أقسام الكتاب في تواليها الزمني: (في ربوع الصعيد: **١٩٨٩ ـ ١٩٠٢/ بين أروقة الأزهر: ١٩٠٢ ـ ١٩٠٨/ الجامعة ودكتورها الأول طه ١٩٠٨ ـ ١٩١٤/ الحلم الأوروبي يتحقّق: ١٩١٤ ـ ١٩١٩**). . فإننا نقرأ ضمن هذه الفصول نفسها قفزات زمنية، إلى الوراء حيناً وإلى أمام غالباً، بحيث نتعرّف جوانب من مجالات نشاط طه حسين لا ترتبط زمنياً بالمرحلة موضوع الفصل ولكنها ترتبط عضوياً باستكمال صورة خاصة معيّنة في تكوين شخصية طه الحياتية أو الفكرية.

وتبرز هذه القفزات الزمنية واضحة، على الأخص، في تلك الفصول حيث يتركّز الحديث في موضوع واحد كما نقرأ، مثلاً، في الفصل الخاص بـ «طه وأبو العلاء»، إذ يتناول الباحث، بالوصف والعرض والمناقشة أحياناً، مختلف أعمال طه حسين الخاصة بأبي العلاء منذ أطروحته «ذكرى أبي العلاء» الموضوعة عام ١٩١٤، **مروراً بكتابه مع أبي العلاء في سجنه الصادر عام ١٩٣٩ ثم العديد من مقالاته في موضوع أبي العلاء، وصولاً إلى كتاب صوت أبي العلاء الصادر عام ١٩٤٤ . . . في حين أن المرحلة موضوع القسم كله محدّدة بـ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ . . كذلك نجد قفزات أوسع إلى وراء قليلاً وإلى أمام كثيراً في الفصل الخاص بـ «تغريبة طه حسين» بحيث يصل الحديث إلى مرحلة مجلة الكاتب المصري (١٩٤٥ ـ ١٩٤٨) وأبعد. . وصولاً إلى الستينات. . في حين أن المرحلة موضوع هذا القسم كلّه محدّدة بـ ١٩١٤ ـ ١٩٤٨ . .**
كذلك نلتقي قفزات من هذا النوع في تلك الصفحات حيث يتناول الحديث تنقّلات طه حسين السياسية والحزبية، بين «حزب الأمة» حيناً، وصورته اللاحقة «حزب الأحرار الدستوريين»، مروراً بتعاون طه مع «الحزب الوطني»، وصولاً إلى استقراره إلى جانب «**حزب الوفد**» واستمراره معه حتى قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وبداية فترة حلّ الأحزاب السياسية. . .

. . هذه القفزات في التركيب الداخلي لبعض فصول الكتاب أسهمت في إغناء اللوحة البانوراميّة المعطاة لمسيرة حياة طه حسين،

وفي استكمال رسم الحركة المتصاعدة في تكوين شخصيّته الثقافية والفكرية. فكانت هذه القفزات جزءاً عضوياً يتطلّبه هذا الشكل من التركيب **الروائي / الفكري** لسيرة كاتب مفكّر متعدّد الجوانب والنشاطات والاهتمامات والمعارك كطه حسين.

- ٣ -

لسنا نبالغ، إذن، في القول: إن د. أحمد علبي قدّم للقارىء في كتابه **هذا - إضافة إلى سيرة طه حسين بجوانبها المتعدّدة،** وبالتشابك مع هذه السيرة) - **لوحة بانورامية شاسعة، غنيّة ومتنوّعة، للحياة الثقافية والفكرية والسياسية في مصر خاصة والعالم العربي، على مدى مراحل عدّة احتدمت فيها الصراعات،** واندلعت حروب، وقامت ثورات، وأنجزت اكتشافات في العلوم والأفكار، وظهرت مذاهب وتيّارات في السياسة كما في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية والنقد الأدبي... فكان لهذه الأحداث والظاهرات صداها ومكانها ضمن هذا التركيب المتشابك للوحة العُلبي البانورامية.

فخلال القراءة نلمس المدى الواسع في اطلاع المؤلف على معظم المراجع والمصادر والوثائق، سواء تلك التي تتناول طه حسين مباشرة أم تلك التي تتناول أوضاع المجتمع والثقافة والسياسة في عصره، بحيث وصل تعداد المصادر والمراجع الأساسية، التي رجع إليها المؤلف، إلى أكثر من ثلاثمئة مرجع.. مع حرصٍ شديدٍ جداً على طابع التوثيق الغني هذا والدقة الصارمة، التي تصل أحياناً إلى ما يشبه الهَوَس، في إسناد هذه الجملة القصيرة، أو حتى الكلمة الواحدة أحياناً، إلى هذا المرجع أو ذاك.. دون أن يفقد الكتاب - مع هذا - عنصر التشويق في العرض والمجادلة والتصوير.. ودون أن يؤثّر هذا في حرص الكاتب الشديد على متانة الصياغة اللغوية وجماليّتها، رغم ميول الكاتب التزيينيّة، أحياناً، في هذا المجال.

وضمن هذه الميزة التوثيقيّة نفسها، تُلفت النظر، في كتاب د. علبي، تلك التعريفات المكثّفة بالعديد العديد من رجال الأدب والفكر والثقافة والسياسة (في هوامش الكتاب) كلما ورد في المتن اسم واحدٍ له أهمية معيّنة في مسار سيرة طه حسين أو فكره. وهذه التعريفات - وقد بلغت حوالي المئة - لا تكتفي بالطابع التوثيقي، بل **إن صياغتها نفسها تتضمّن رأياً تقييمياً في الشخص المعرّف به،** فتضيف إلى القارىء ثقافة معرفية جديدة، إضافة إلى وظيفتها الأساسية في إضاءة النص والقضايا موضوع الحديث، في متن الكتاب نفسه.

في مقدمة كتابه، ينتقد د. علبي التوجّهات العامة لعددٍ من الكتب أو الدراسات التي تناولت طه حسين. فهو يرى: **«أن الذين** كتبوا عن طه حسين، معجبين في الأعم أو رافضين مسفّهين في الأقل، كانوا يُهيلون عليه الثناء أو الذمّ ويُغرقونه في لجّة من آيات المديح أو الهجاء مفرطين غالين. وما هكذا تكون الدراسة **العلمية» (ص: ١٣ - ١٤). كما يرى أن الكتابة عن طه حسين،** وغيره من رجال الفكر والأدب والثقافة، ينبغي أن تمارَس في نهجٍ من العقلانية والموضوعية دعا إليهما طه حسين نفسه طوال حياته، **وإن كان يشذّ عنهما في قليل من الأحيان. ثم يصفُ عمله هذا** عن طه حسين بأنه: **«لم يكن أنشودة إطراء، وتفخيم له، كما هو حال جُلّ المبهورين به، كما لم يكن نحراً وتشويهاً للحقيقة الجدلية لتراثه ككل، شأن السلفيين الغُلاة، بل هو، ببساطة، سعيٌ لتقديم دراسة موضوعية» (ص: ١٤).**

.. فصار يحقّ لنا الآن الدخول من البوّابة الموضوعية نفسها إلى **حيث نناقش المؤلف الصديق ونحاوره في جوانب من بنية الكتاب** نفسه، وفي بعض القضايا والمفاهيم التي يتراءى لنا أنها تستدعي النقاش أو تستدعي قراءة مختلفة.

- ٤ -

في بعض فصول الكتاب إسهاب في موضوعات لا تستدعي بنية الكتاب نفسه الإسهاب فيها، بل تتطلّب الإيجاز وأحياناً لا يكون **ضرورياً الخوض في الموضوع أصلاً.. وفي أمكنة أخرى يُحجم** المؤلف عن موضوعات أو يعتذر عن الخوض فيها رغم أن موضوع الفصل نفسه يتطلّب بعض التفصيل في هذا المجال بالذات...

وليست مهمتنا هنا «إحصاء» حالات الإسهاب والإحجام، بل نكتفي بأمثلة لإيضاح ما نعنيه:

● ففي عرض د. علبي لأطروحة طه حسين في **«ذكرى أبي العلاء»** ومناقشته لها، يدخل في بحثٍ مدقّق مفصّل موثّق حول اسم **«معرّة النعمان» - حيث ولد المعري - ومن أين جاءت التسمية؟** ولماذا أضيف إلى اسم «معرّة» اسم «النعمان» لا غيره؟.. ويدخل في نقاش مع أقوالٍ لطه حسين ولبعض المستشرقين حول «سرّ» هذه التسمية!..

.. فإذا كان مثل هذا التفصيل من متطلّبات أطروحة طه حسين هذه، التي موضوعها **أبو العلاء،** فهو شأن لا يعني دراسة د. عُلبي، التي موضوعها طه حسين، ولا يغنيها وليس من متطلّباتها.. فقد يكون من متطلّبات دراسة د. علبي هذه البحث، مثلاً، في أصل اسم **«مَغاغَة»**، حيث ولد طه حسين، لأن **سيرة طه حسين** هي موضوع دراسته.. وهذا ما فعله، وحدّد أيضاً مكان **«مَغاغَة»** الجغرافي **«إلى جانب الشط الغربي للنيل»**.. وحسناً فعل.

ويسهب علبي قليلاً في عرض تاريخ «الجامع الأزهر» كمكان للصلاة وللتعليم (لأن طه حسين تلقّى تعليمه ما قبل الجامعي في الأزهر. .) وكان يمكن، هناك، التكثيف. . ثم يدخل في تفاصيل أكثر حول فكر الشيخ الامام **محمد عبده** ومحاولاته إصلاح حال التعليم في الأزهر ووضعه في أفق التقدم، عندما كان الشيخ **الإمام** مفتياً للديار المصرية. . هنا أيضاً لم يكن هذا الإسهاب ضرورياً، وكان الإيجاز أو التكثيف يفي تماماً بمتطلّبات الموضوع نفسه.

نشير إلى هذا ليس فقط لمجرّد أننا نأخذ على المؤلف الإسهاب في موضوعات وتفاصيل كان يمكن، وينبغي، الإيجاز فيها. . بل لأننا، على الأخص، نأخذ على المؤلف عدم الدخول في تفاصيل أو مناقشات كان الموضوع نفسه يتطلّب الإسهاب في مناقشتها، كما أن بنية الكتاب نفسه تتطلّبها وتحتاج إليها. . فكان المؤلف ـ بالعكس ـ يقفز عنها أو يتجاوزها أو يعتذر عن الخوض فيها. . وكأن هذا التجاوز من بدهيات الأمور. .

● ففي مناقشته جوانب من كتاب طه حسين **ذكرى أبي العلاء المعري**، يعترض د. عُلبي على تقديم طه حسين **الشأن السياسي** على **الشأن الاقتصادي**. في بحثه عن جذور الأفكار والتيارات في عصر أبي العلاء. . يسجّل هذا الاعتراض، ثم يمتنع عن مناقشة الأمر مكتفياً بهذا السطر: «لسنا الآن في معرض مجادلة طه حسين على صحة تقديم **السياسي على الاقتصادي**»!. . (ص: ٣١٥).

لماذا؟. أما كانت المجادلة، هنا، ضرورية؟. . أمّا نحن فسوف نجادل في هذه المسألة بعد قليل. .

● ثم: خلال الحديث الغني المسهب عن علاقة طه حسين بالحضارة الغربية، والثقافة الفرنسية تحديداً، يفاجئنا د. علبي بالقول: «. . ولا نتطرّق ههنا إلى موقف طه حسين السياسي. .» من علاقة العرب **بالغرب** (ص: ٤٧٩). . ويبرّر هذا بأن «المكان لا يسمح لنا بدراسة الموقف السياسي التفصيلي لطه حسين حيال الغرب»!. . فإذا سألتَ لماذا؟. . فستقرأ هذا الجواب في السطر نفسه من الصفحة نفسها: ـ «. . لخروج هذا الأمر ربما عن السياق»! (ص: ٤٨٠). لماذا، أيضاً؟. . لعل كلمة (ربما) تحمل بعض الجواب، وتشي بعدم اقتناع د. علبي نفسه بهذا الإحجام عن الخوض في الموضوع. . في حين كان بعض التفصيل، ههنا، ضرورياً، وفي مكانه تماماً.

● وبشأن حماس طه حسين غير المحدود للحضارة الأوروبية، وآرائه التي يعرضها د. علبي بإسهاب ضروري، يفاجئنا كذلك بالقول: «. . ونحن نعرض ما ارتأى طه حسين في أمانة، وليس بغيتنا أن نقول أَخَطَأَ ما ذهبَ إليه أم صواب» (ص: ٤٣٨). . ولِمَ لا؟. .

فإذا كان علينا أن نعرض مواقف طه حسين من الحضارة الأوروبية، من موقعه الراديكالي المتميّز بين مفكري البرجوازية المتنوّرين. . أليس على الباحث في هذه المواقف نفسها أن يحدّد موقفه ـ هو ـ منها، خاصة إذا كان يناقشها من موقعٍ آخر، وفي زمن آخر؟. .

لقد سمح د. علبي لنفسه ـ وهذا بدهي ـ أن يناقش طه حسين في شؤون كثيرة، وأن يحدّد ـ وبحسمٍ قاطعٍ أحياناً ـ «أَخَطَأَ ما ذهبَ إليه طه حسين أم صواب». . دون أن يخشى في هذا لومة لائم. . فلماذا الإحجام ههنا؟. .

أخشى أن أقول: لعلّ حماس د. علبي لطه حسين في اندفاعاته الأوروبية يشبه نوعاً ما حماس طه حسين لأوروبا. .

● في إشاراتنا إلى عددٍ من ميزات الكتاب قيّمنا كثيراً المدى الواسع في اطلاع المؤلف على معظم المراجع والمصادر والوثائق المتعلّقة بطه حسين وبالحياة الثقافية السياسية في عصره، وإسناد كل استشهاد إلى مرجعه. . على أن هذه الميزة الإيجابية نفسها لها أيضاً جانبها السلبي، حسب طريقة التعامل مع هذه المراجع ومنهج هذا التعامل. .

فالاستشهادات، من كتابات الآخرين، كثيرة جداً، وغالباً ما نجد بين استشهاد واستشهاد آخر جملة واحدة، أو حتى كلمة واحدة. . حسناً؟. الاعتراض ليس هنا. الاعتراض ينحصر في واقع ان **صوت المؤلف** يضيع، وأحياناً يغيب، في زحمة هذا الحشد من الاستشهادات والأصوات المختلفة. . وليست قليلة تلك الحالات حيث نلمس كأن د. علبي، في إيراده هذا الاستشهاد أو ذاك، قد تبنّى مؤدّاه وأحكامه، في حين نعرف أن رأي د. علبي وموقفه لا يتطابقان مع الرأي الآخر الذي يورده دون مساءلة أو نقاش:

ـ فهل صحيح، مثلاً: **«أن الثورات الأوروبية** ـ من علمية وسياسية ـ **توالت بعدما خرجت أوروبا من نطاق التوفيقية (بين الكنيسة والعقل الأرسطي)**. . وإن الصيغة التوفيقية المستجدّة (في الشرق العربي) التي يستقرّ عليها محمد حسنين هيكل، والتي لا تتجاوز توفيقية محمد عبده، دينياً وفلسفياً واجتماعياً، هي التي ستمثّل الأساس الديني الفلسفي المضمَر والخفي ـ في أغلب الأحيان ـ للفكر العربي «الثوري» و«الاشتراكي» و«اليساري» و«التقدمي» الذي سيسود خلال ثلث القرن المقبل بين ١٩٣٦ ـ ١٩٦٧»؟؟. (ص: ٤٧٩ = نقلاً عن **محمد جابر الأنصاري**: تحوّلات الفكر والسياسة في الشرق العربي، ص ٧٢).

يورد د. علبي هذا الرأي لمحمد جابر الأنصاري، وكأنه بدهية، ودون أن يطرح عليه أية مساءلة، من مثل تغييبه المطلق لدور البرجوازية الصاعدة المنتصرة هناك (في **أوروبا**) والبرجوازية التابعة الخانعة هنا (في بلادنا العربية). . وكون صعود البرجوازية، هناك، حاملة مشروعها الهائل لإرساء أسس النظام الرأسمالي هو في أساس

نقض تلك «التوفيقية» وقطع الطريق عليها والسير في طريق علماني حاسم، وأن خروج أوروبا من نطاق تلك «التوفيقية» فرضته تلك العلاقات الاجتماعية الاقتصادية الجديدة التي تتكوّن، وصعود البرجوازية كقوة ثورية تغييرية - عصر ذاك - تحقق مشروعها وتبني نظامها وتحطّم كل البنى المادية والأيديولوجية التي تعترض زحفها الهائل..

وإذا كان صحيحاً أن التوفيقية في فكر هيكل ومحمد عبده هي **الأساس الإيديولوجي للفكر العربي «الثوري».. الخ (وهو على كل** حال كلام غير دقيق) فيجب أن نرى **أساس هذا الأساس** وهو: طابع البرجوازيات العربية التابعة التي يكاد كل مشروعها الاجتماعي الاقتصادي ينحصر في: كيف تبني «رأسمالية» تابعة بشكل... ديمقراطي!!.

طبعاً، ليس موضوعنا الدخول في نقاش مع **الأنصاري** حول أحكامه واستنتاجاته هذه.. ولكننا نحاول تبيان: إلى أين يؤدي التساهل في إيراد الاستشهادات، التي تحمل آراء الآخرين وتعبّر عن مواقفهم ومواقعهم، كما لو أننا نتبنّى هذه الآراء...

ومثل هذه الحالات، في صفحات الكتاب، ليست قليلة.

● في دراسة نيّرة **للدكتور علي سعد** عن كتاب د. علبي نفسه. (منشورة في جريدة «اللواء» البيروتية، ٢٠ كانون الأول ١٩٨٦) ملاحظة نرى هنا ضرورة التأكيد عليها. ففي «التمهيد» لفصول كتابه يعلن د. علبي أن همّه، من الناحية المنهجية، كان محاولة «تقديم عملٍ... قائمٍ على البحث المدقّق **في التفاصيل الحميمة** لحياة الكاتب المعني بالدراسة.. وفي انخراطه في أحداث مجتمعه ملتزماً بقضاياه شاهراً سيف الرأي والموقف.. من هنا تتأتّى أهمية الخلفية المجتمعية والتاريخية التي حرصنا على أن نرسمها لعصر طه حسين» (ص: ١٦).

الدكتور علي سعد يأخذ على د. علبي ابتعاده عن الالتزام الصحيح بهذه الناحية المنهجية.. ذلك أن قارىء الكتاب لا بدّ أن يلاحظ: «فقدان التوازن بين الجانب الشخصي (الحميم) من حياة طه حسين، والجانب الذي يسمّيه المؤلف الخلفية المجتمعية والتاريخية».. ونحن مع الدكتور علي سعد في مأخذه هذا.. ولا ينهض عذراً أمام المؤلف، كون طه حسين خاض كثيراً في هذه التفاصيل الحميمة، عَبْرَ أجزاء كتابه **الأيام** وكتاب **أديب** وعبر فصول في كتب أخرى له.. فطه حسين يصوّر **أيامه** من موقعه هو وحسب رؤيته هو - لها وإحساسه بها وما سمح لنفسه أن يكشفه منها.. أما كاتب سيرة طه حسين فطبيعي أن لا ينظر إلى هذه السيرة من موقع صاحبها نفسه، بل من موقع آخر، فمن المفترض أن تكون حتى التفاصيل الحميمة التي يوردها طه حسين، موضوعَ دراسةٍ لكاتب سيرته.. لهذا لا يمكن الاعتذار هنا بأنه يمكننا أن نجدها في مظانّها، حيث كتبها طه حسين نفسه.

وبالفعل، فالقارىء وهو يقرأ سيرة «رجل وفكر وعصر».. ويعرف أن هذا **الرجل فقد بصره في صغره، واستطاع أن يشقّ** طريقه وسط الظلام **الأيدي، لا بدّ له أن يتساءل: كيف كان طه** حسين يعمل؟.. كيف كان **يجد مَنْ يقرأ له ومن يملي عليه؟ وكيف** كان يتعامل معه، خاصة في المراحل الأولى **لممارسة الكتابة ولم يكن** له، بالطبع، سكرتير أو رفيق دائم؟.. **هذه أشياء وتفاصيل هي** جزء أساسي مكوِّن في كتابة **السيرة** بقدر **ما هي جزء أساسي في** تكوين شخصية صاحب السيرة.. وهي **لا تدخل فقط في الجانب الشخصي** من حياة طه حسين، بل هي **في أساس سيرة صراع طه** حسين في سبيل تحصيل العلم والثقافة **وفي سبيل نقل العلم والثقافة** والمعرفة إلى الآخرين.

ثم: ما هي علاقة طه حسين بالمرأة بشكل عام، قبل سفره إلى أوروبا وبعد سفره؟.. وكيف هي علاقته **بسوزان** زوجته الفرنسية المثقفة التي اختارت الحياة مع إنسان أعمى، ومن بلد بعيد، ومسلم، وذلك قبل أن يظهر لها أن طه حسين **سيصير** إلى ما صار إليه طه حسين..

هذه العلاقة التي يمتزج فيها الحب والصداقة والأفق الرحب والتكوّن الثقافي الإنساني عند **سوزان** وعند طه معاً، كانت تحتاج بالتأكيد، من قلم أحمد علبي الأديب بالذات، إلى ما يتجاوز تلك الكلمات العابرة التي أشار بها إلى سرّ هذه العلاقة: «.. إنه الحب، وما كتبنا هذا العمل لنروي قصص الحب، ولسنا نحفل بالجانب العاطفي من هذا الحب، فقلوب الناس واحدة وهي تعشق على الشاكلة نفسها..»!.. ولو.. ولو.. يا سامحك الله!

فإن سيرة هذا الـ «رجل»، وقد صيغت بقلم كاتبٍ أديب ولغة جميلة، ليس يصحّ أن تضيق ببضع صفحات عن الحب.. هذا النوع المختلف، وغير العادي، من الحب الذي هو، بالتأكيد، ليس «على الشاكلة نفسها».. حتى ولو صحّ أن **سوزان**، كما يستنتج المؤلف، «معتدّة بنفسها تيّاهة»!...

- ٥ -

في الفقرات السابقة من هذا الحديث، تناولنا، ببعض الوصف وبعض المناقشة، جوانب من **بنية هذا الكتاب**، وتوقّفنا عند ميزاته من حيث الشمولية والتوثيق والبحث ومتانة اللغة والسرد المشوّق.

ولكن الكتاب يضم عدداً من الفصول المتميّزة، والمثيرة أيضاً للجدل، نحبّ التوقّف عندها، وهي تحديداً فصول: **«طه وأبو العلاء»** - أطروحة طه عن **«فلسفة ابن خلدون الاجتماعية»** - ثم: **«تغريبة طه حسين»**:

١ ـ «طه وأبو العلاء»:

من ميزات هذا الفصل أنه يتجاوز، في الواقع، الفترة الزمنية التي هي موضوع الكتاب (= حتى العام ١٩١٩)، فهو لا يكتفي بالعرض النقدي المفصّل لأطروحة طه حسين **«ذكرى أبي العلاء»** (١٩١٤). بل يرى أن من الضروري رؤية كيف تعامل طه حسين مع موضوع أبي العلاء الذي يعني له (بحياته وسلوكه وفلسفته) الشيء الكثير، ضمن سياق حالة طه الخاصة (عاهة العمى) ونمط مواقفه وتفكيره.. فتناول بالعرض وأحياناً بالنقد والمناقشة أعمال طه اللاحقة: **مع أبي العلاء في سجنه** (١٩٣٩) و **صوت أبي العلاء** (١٩٤٤)، وعدد من المقالات والدراسات يتناول فيها طه جوانب من موضوع أبي العلاء. فقد رأى د. علبي ضرورة هذه الإحاطة، لأنها لا تساعد فقط في رسم رؤية طه لأبي العلاء وفلسفته، بل تساعد القارىء في أن تتكوّن عنده رؤية أشمل لطه حسين نفسه. وحسناً فعل.

في هذا الفصل، دخولٌ أكثر في الحوار مع أعمال طه حسين، وتحليلها ونقد جوانب منها، إضافة إلى العرض المكثّف لها. فلم يعد السرد هو البارز بل منطق التعاطي مع فكر طه حسين هو الأبرز.

في تناوله لمنهج طه حسين، في كتابه **ذكرى أبي العلاء**، يبيّن د. علبي استخدام طه حسين بعض المناهج الأوروبية في البحث، وتبنّيه على الأخص منهج الناقد الفرنسي **إيبوليت تين** الذي يأخذ بـ «الجبر التاريخي»، وبأن الفرد نتاج عصره وتعبير عنه، وهو ينطلق من القول بأن الكاتب هو ابن بيئته وزمنه، ليصل إلى ضرورة العرض التفصيلي للبيئة والعصر وأوضاع المجتمع، ثم ليرى إلى نتاج الكاتب ونشاطه وكيف أنه مرآة لها. وينتقد د. علبي هذا المنطلق موضحاً مخاطره بما يؤدي إليه من ميكانيكية في التحليل وفي الحكم على نتاج الكاتب كما لو أنه مجرّد مرآة.. وكذلك من ميكانيكية في العرض، بحيث يُفرد المؤلف فصلاً عن البيئة ثم عن أوضاع المجتمع السياسية والاقتصادية الخ.. (وهي فصول ومعلومات **يمكن استخدامها كما هي ـ حسب منطق منهج كهذا ـ كتمهيد** للبحث في نتاج أي كاتب آخر في العصر نفسه!!).. وبعدها يأتي الحديث عن الكاتب وعن نتاجه فكأنه، بهذا، مجرّد انعكاس مباشر للبيئة والأوضاع.. وقد امّحت معالمه الإنسانية الشخصية الخاصة!. ويلاحظ د. علبي مبالغة طه حسين، هنا، في التطبيق الصارم لهذا المنهج، ولكنه يشير، في الوقت نفسه، إلى الجانب الإيجابي والريادي لعمل طه حسين من حيث هو: بروز للعقلانية في البحث واقترابٌ إلى ما سمّاه طه في حينه «النقد الأدبي العلمي».

ولكن د. علبي يأخذ على طه حسين أنه، في حديثه عن البيئة والأوضاع في عصر أبي العلاء، يقدم الشأن **السياسي** على الشأن **الاقتصادي**، من حيث أنه يسهب في عرض الحياة السياسية، ويمرّ بشكل عابر على الحياة الاقتصادية: «**إذ السياسة في التحليل الأخير، هي تتويج وبلورة وانعكاس جدلي**» لأوضاع المجتمع الاقتصادية.. فكان على طه حسين (وغيره من الباحثين)، كما يرى د. علبي: «**أن يقدّم لوحة للتمايزات الطبقية ونمط الإنتاج السائد ومؤشّر المبادلات التجارية**..» (ص: ٣١٥ ـ ٣١٦).

مآخذ د. علبي هذه، أو طلباته، تثير مجدّداً تساؤلات ومسائل، نوقشت كثيراً في السابق ولا يزال لها أصداء وانعكاسات:

ـ فهل من الضروري دائماً (حتى لدى البحث في تأثير العصر بنتاج الكاتب) أن يجري تقديم **الاقتصادي على السياسي**، أو حتى أن يوازن الباحث بين الاقتصادي والسياسي، لرؤية الأصول الاجتماعية لنتاج كاتب ما؟.. وتالياً: هل **الاقتصادي**، دائماً، هو **الحاسم**، وفي مختلف المراحل.. **والسياسي**، دائماً، هو **الثانوي**؟.. ألا يحدث أن يأخذ **السياسي**، في مجرى هذه المرحلة أو تلك، الدور **الحاسم** حتى بالنسبة **للاقتصادي**؟.. ثم: هل من الواقعي أن نطالب طه حسين الشاب (وفي العام ١٩١٤) بأن يقدّم لنا لوحة عن **نمط الإنتاج السائد** ـ في عصر أبي العلاء ـ بل وحتى **مؤشرات المبادلات التجارية** لذلك الزمان؟!.. في حين لا يزال الماركسيون العرب، حتى يومنا هذا، **حائرين في هذا الأمر**، بل هم لم يبحثوا فعلاً، جدّياً وعلمياً (أي: ماركسياً)، ولم يحدّدوا فعلاً، طابع **أنماط الإنتاج** السابقة على **نمط الإنتاج** الرأسمالي التابع (أو: **الكولونيالي**، حسب مهدي عامل) التي كانت سائدة في تلك المجتمعات العربية؟.. وإن هذه المسألة لا تزال مجرّد تكهّنات وفرضيات، وإن كان بعضها أقرب إلى الفرضية العلمية؟..

... فإذا أعدنا قراءة كتاب د. علبي نفسه عن طه حسين (الصادر عام ١٩٨٥) في ضوء ما يتطلّبه هو من كتاب طه حسين عن أبي العلاء (الصادر عام ١٩١٥).. ألسنا نرى، هنا، عدم توازن صارخ جداً بين **السياسي فيه والاقتصادي**؟ ألا نرى أن السياسي فيه هو الأبرز، أو هو المتقدّم أكثر على الاقتصادي في جميع فصوله.. وان «حصّة» التحليل الاقتصادي لتحديد الأسس الاقتصادية الاجتماعية (والطبقية) لقيام الأحزاب السياسية، مثلاً، المتصارعة في مصر، أيام طه حسين، خاصة «حزب الأمة» و «الحزب الوطني» و «حزب الوفد» (وكان طه يتنقّل بين هذه الأحزاب).. هذه «الحصّة» قليلة جداً، بل هي عابرة، تكتفي أحياناً باللمح وتغيب في أغلب الأحيان؟.. أكثر من هذا فإن الشأن **الأبرز** في الكتاب (لإرجاع مواقف طه إلى أصولها) ليس هو الشأن **السياسي** بل هو الشأن **الثقافي**.. ونحن لا نرى في هذا عيباً أو خطأ.

قد **نختلف** مع د. علبي على بعض الصياغات والتحديدات الاقتصادية والطبقية، الواردة عنده هنا أو هناك.. ولكننا لا نأخذ على كتابه **أن الشأن السياسي فيه كان متقدماً على الاقتصادي**، وان **الشأن الثقافي كان هو الأبرز**.. **ولكن، إذا كنّا قد استخدمنا ـ هنا ـ**

منطقه هو، في مأخذه على طه حسين، فلنقول له: إن هذا المأخذ ليس بمأخذ، لا بالنسبة لكتاب طه حسين عن أبي العلاء ولا بالنسبة لكتابة هو عن طه حسين.

وفي هذا السياق نفسه، وفي إشارته إلى مختلف مصادر مفهومَيْ «الجبر التاريخي» و«الحتمية التاريخية» التي تأثّر طه حسين بمناخها الفكري العام، يكتب د. علبي: «رأى كارل ماركس أن تاريخ البشرية كامن في التطور التاريخي للعمل، بحيث أن العامل الاقتصادي حاسم في القوانين التي تتحكّم في مجرى الأحداث، وقد نادى بالصراع الطبقي وبالحتمية التاريخية التي هي ضربٌ من الجبر» (ص: ٣١٠).

هذه الصيغة ربما يعوزها بعض الدقة:

- فبالنسبة لتاريخ البشرية، فقد تكون الصيغة أكثر دقة إذا قلنا إنه «كامن في التطور التاريخي لوسائل العمل أو لقوى الانتاج» بصورة أعمّ، وليس فقط لـ «العمل». . هذا عندما نريد تحديد التناقض الأساسي، الذي هو التناقض الاقتصادي بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. . أما القوة المحرّكة للتاريخ فليست في التناقض الاقتصادي - أو العامل الاقتصادي - بشكل مجرّد وآلي (جبري) بل هي في الصراع الطبقي تحديداً (الصراع الطبقي هو قاطرة التاريخ - ماركس).

- ولعلّ القول بأن ماركس «نادى بالصراع الطبقي» ليس دقيقاً. فالحديث عن الصراع الطبقي سابق لماركس، أما هو فقد صاغ هذا المفهوم علمياً، وكشف عن كون هذا الصراع هو المحرّك للتاريخ، ووضع أسس تنظيم الطبقة العاملة في خوض صراعها الطبقي، وتنظيم حزبها السياسي لخوض هذا الصراع، ودمجه بمختلف الصراعات الاجتماعية، باتجاه الاستيلاء على السلطة السياسية والتغيير الثوري للنظام الاجتماعي. كما أن الاكتفاء بالقول: إن ماركس نادى بالصراع الطبقي لا يحدّد مكان ماركس، هل هو مع الطبقة العاملة أم مع الطبقة البرجوازية؟. . ذلك أن البرجوازية تخوض أيضاً صراعها الطبقي ضد الطبقة العاملة.

- أما أن ماركس «نادى بالحتمية التاريخية التي هي ضربٌ من الجبر». . فهذا أيضاً قول غير دقيق. فالقول بالحتمية (أو الجبرية؟) يؤدي إلى نفي الدور الواعي للجماهير، وللطبقة العاملة في صنع التاريخ أي: بإحداث التغيير الثوري عبر تنظيم الصراع الطبقي (أي: السياسي) للاستيلاء على السلطة. . إن تشكيل حزب الطبقة العاملة، لإدارة الصراع الطبقي، هو بحدّ ذاته، نفي للقول بالحتمية أو الجبرية. . وقد سبق للدكتور علبي أن أشار إلى الطابع الميكانيكي للجبرية في فهم حركة التاريخ، وانتقده، فهو فهمٌ بعيد جداً عن ماركس والماركسية. . وكثيراً ما كان هذا المفهوم يُلصَق بالماركسية من خارجها (وأحياناً من الدوغمائيين فيها).

ولعلّ انتقاد د. علبي لطه حسين، لتقديمه السياسي على الاقتصادي، فيه أثرٌ من هذا الالتباس الذي يشي به هذا التلخيص لمفهوم ماركس عن التطور التاريخي والعامل الاقتصادي.

٢ - «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية»:

يخصّص د. علبي فصلاً كاملاً للحديث عن أطروحة طه حسين الثانية «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية». هذا الواقع يشير إلى الأهمية التي تحتلها هذه الأطروحة في تطور فكر طه حسين. ورغم إعلان المؤلف بأن أطروحة طه الأولى عن أبي العلاء هي أهم وأفضل وأعمق وأرحب من أطروحته الثانية هذه عن «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية»، فإننا نرى أن أهمية هذا العمل الفكري لا تتحدّد فقط بمدى عمق (أو سطحية) التحليل النقدي، الذي يقوم به طه حسين لمقدمة ابن خلدون، بل بمعنى اختيار طه «مقدمة» ابن خلدون لتكون موضوع أطروحته. فبهذا الاختيار يؤكد طه النهج العقلاني الذي رفع رايته، والذي كان واحداً من أهم أسباب معاركه مع شيوخ الأزهر ومع المحافظين والتقليديين والمعادين للعلم وللعقل وللحرية الفكرية. كما يشير هذا الاختيار إلى طموح طه حسين للوصول إلى منهج علمي في النقد الأدبي وفي النقد التاريخي على السواء. . ثم، ألا نرى في هذا الاختيار نفسه، ثم في فهم طه حسين لمنهج تعامل ابن خلدون العقلاني مع الواقعات التاريخية، بذوراً لكتابه اللاحق في الشعر الجاهلي الذي أثار معارك فكرية وسياسية لا يزال صخبها يترامى حتى يومنا هذا؟. .

- في حديث د. علبي عن الفصل الأول من أطروحة طه حسين هذه، نقدٌ نيّر لكيفية تعامل طه مع سيرة ابن خلدون، وتجريحه له في حياته الشخصية وتحامله على «سلوكه الأخلاقي». . ولا يكتفي د. علبي بانتقاده طه حسين وأسلوبه هذا في التحامل، بل هو يبين مبالغاته واعتماده أخباراً وتكهّنات غير صحيحة، ويصل إلى الاستنتاج الواقعي بأن: «هذه المحاكمة الأخلاقية تبدو من طه حيال ابن خلدون في غير موقعها تماماً، أولاً لأنها غير صائبة. . . ثم إن ما يبدو شاذاً أو مرفوضاً في ميزان الأخلاق قد يبدو سائغاً مقبولاً في ميدان السياسة» (ص: ٤٠٥).

- على أن د. علبي يقيّم جوانب أخرى هامة في كتاب طه حسين هذا، سواء في عرضه أفكار طه، الجديدة في زمنها، أم في تأييده طه في نقده آراء وأحكام عدد من الباحثين الآخرين بصدد نظريات ابن خلدون. . ولعل المسألة الأهم في هذا السياق هي مناقشة طه حسين أولئك الباحثين الذين يقارنون «المقدمة» بنظريات علم الاجتماع الحديث: حيث يُطلق بعضهم على ابن خلدون لقب «مؤسس علم الاجتماع»!. وينفي بعضهم الآخر هذه الصفة انطلاقاً مما وصل إليه علم الاجتماع هذا في عصرنا!. . أما طه حسين فيرى أن هؤلاء وهؤلاء ابتعدوا بالمقدمة عن موضوعها، فالمقدمة تعالج موضوع الدولة وموضوع التاريخ وفيها «تلمّس لعلم الاجتماع وليس

هو العلم نفسه». . ويؤيد د. علبي رأي طه حسين هذا، ويرى: أن «ابن خلدون في نهاية المطاف مؤرخ ومتفلسف في فهمه لميدان علمه وعمله، ولكنه ليس بعالم اجتماع» (ص: ٤١٤).

ـ ونردّد هنا قول د. علبي نفسه، فنرى: «أن الملاحظات المتقدمة التي أبداها طه حسين (و د. علبي) تبدو لنا ذكية، برغم قِصَرِها، (ونشاركهما) الرأي فيها» (ص: ٤١٤). . ونضيف إلى هذا بأنه ليس المهم الرؤية إلى نتائج كشوفات ابن خلدون (قبولاً أو تحفّظاً) في علم التاريخ (أو علم الاجتماع) بالنسبة لعصرنا، وواقع **إنجازات** هذه العلوم. . بل المهم والأساسي أن نرى إلى كشوفاته تلك بالنسبة لعصره هو: الجديد في تلك الكشوفات، **والنقلة النوعية** الأساسية التي أحدثها على صعيد البحث في أسباب التغيّرات والتطورات في حركة التاريخ البشري، والانتقال بالكتابة التأريخية من صعيد سرد الأخبار المتناثرة المتناقضة، عن الحوادث التي تجري في محيط الفئات العليا من طبقات الحكام على الأخص، إلى صعيد العلم: فمع «مقدمة» ابن خلدون، **صارت كتابة التاريخ علماً، علماً بكيفيّات الوقائع، أساسه البحث في حركة العمران، علماً جديداً مستقلاً، هو علم التاريخ. هذا هو الإنجاز الحقيقي** الأساسي الكبير لابن خلدون. . فليست تصحّ مقارنة إنجازه النوعي **هذا بعلم حديث (علم الاجتماع) الذي تكوّن كعلم مستقل** خاصة، مع صعود البرجوازية، وما حملت معها ورافقها من ثورات سياسية اجتماعية وعلمية، وإقامة نظامها الرأسمالي الحديث.

ـ وفي ظنّي أن د. علبي مارس ديمقراطيته أكثر من اللازم عندما أورد العديد من آراء باحثين آخرين في ابن خلدون و «مقدمته»، خاصة آراء **لمحمد عابد الجابري**، في صيغة توحي بأن د. علبي يتبنّى هذه الآراء دون أن نتعرّف بوضوح على رؤيته هو لجديد ابن خلدون، الجديد **النوعي** الذي حملته «المقدمة»، والذي لا ينحصر في عقلانية النظر إلى التاريخ، ووضع المفاهيم الخلدونية الشهيرة في العمران، والعصبية، وقيام الدولة، والمُلك الخ. . . ولا ندري إذا كان يصحّ الاكتفاء بتبنّي الرأي القائل بأن «جوهر ابن خلدون أنه رجل سياسة، و «المقدمة»، كما قيّمها بعضهم، **كتاب في السياسة قبل كل شيء**» (ص: ٤٢٠). . ولو شدّد د. علبي على **المنطلق المادي** في رؤية ابن خلدون لواقعات التاريخ والعلاقات بينها، والاجتماع الانساني، وحركة عمران العالم وكيفيّات الوقائع. . وهو ما نقل التأريخ من صعيد السرد الحدثي إلى صعيد **العلم**. . لكان هذا الفصل المهم أكثر وضوحاً ودقة وتحديداً، وأكثر إفصاحاً عن مضمونه الخفي.

٣ ـ «تغربية» طه حسين:

في مطلع هذا الفصل الغني، يكتب د. علبي: «الحضارة الغربية، الغرب، التغرّب، الاستغراب، التطلّع إلى أوروبا، الأوربة، التأورب، التفرنج، وغيرها من المصطلحات، شاعت في أدبيّاتنا بفعل التلاقي أو التصادم أو الصراع على أنواعه بين الشرق والغرب. و «تغربية» طه حسين ليست جديدة على الفكر العربي الحديث، فلقد سبقه على هذا الدرب آخرون، لعل أبرزهم شهرة وأثراً وبلورة وتمثيلاً هو الشيخ **رفاعة رافع الطهطاوي**» (ص: ٤٢٧).

. . . وهذا الفصل الشمولي الواسع المدى، هو أشبه بجولة في عقول أبرز هؤلاء الكتّاب والمفكرين العرب المتأثرين، بشكل أو بآخر، بالحضارة الأوروبية، والمتحمّسين إلى هذا الحدّ أو ذاك، لهذه الحضارة، على اختلاف مقاصدهم وأهدافهم والتيارات الفكرية والسياسية والدينية التي ينتمون إليها.

ومن فضائل هذا الفصل **إن المؤلف لا يتقيّد بالمرحلة موضوع** الدراسة (= حتى العام ١٩١٩، عام تخرّج طه من السوربون وعودته إلى مصر). . بل هو كثيراً ما يعود إلى الوراء ثم يقفز إلى أمام متابعاً هذا التيار حتى بداية الستينات. . فنتعرّف على هواجس تيار واسع عريض من المثقفين العرب الذين كانوا يرون في اقتباس أفكار نهضة أوروبا وحضارتها الراهنة، أهم العوامل للنهضة والتقدم في مصر والبلاد العربية. . وهؤلاء تتنازعهم مواقف ومواقع شتى، من يمين اليمين، إلى الوسط الحائر، إلى فريق من الراديكاليين الذين لامسوا أفكار الاشتراكية في شكلها الفابي أو شبه الماركسي. . وبين هؤلاء المثقفين جميعاً يبرز طه حسين رافعاً راية حرية الفكر وإعلاء شأن العقل وإرساء المجتمع المدني، والمأخوذ بالحضارة الأوروبية عامة، والثقافة الفرنسية منها خاصة، والذي يطوّر أفكاره ومواقفه باستمرار: من مواقف الليبرالية **الأرستقراطية (مع مثقفي حزب الأمة** والأحرار الدستوريين) إلى الليبرالية الوطنية (مع حزب الوفد) إلى نمطٍ من الراديكالية الجريئة التي تميل إلى يسار الوفد، وتسعى إلى محاورة اليسار الماركسي. .

يرسم د. علبي هذه اللوحة، مستخدماً العديد العديد من الاستشهادات، مناقشاً بعضها، متأثراً ببعضها الآخر، متماهياً مع عددٍ منها، ميّالاً ـ في هذا الفصل ـ إلى تبنّي معظم آراء طه ومواقفه، في هذا المجال، فلا يدخل معه في حوار نقدي إلا قليلاً، فهو لا يخفي تعاطفه الشديد مع **اندفاعة** طه الأوروبية، رغم ملاحظته **الصائبة بأن طه حسين «وقف من الثقافة الأوروبية، والفرنسية منها** بخاصة، موقفاً غير نقدي». . أما القارىء فلن يكتفي بقول د. علبي، همساً، في نقد هذا الموقف «غير النقدي»: إن موقف طه هذا هو «. . بخلاف موقفنا الثقافي الحالي الذي يميل إلى طرح الأسئلة على الثقافة الغربية» (ص: ٥١٣).

وعبر قراءة هذا الفصل، نرى إلى العدد الأكبر من هؤلاء المثقفين المبشّرين بالحضارة الأوروبية، وقد آل بهم المصير ـ بعد سنين من العراك واللمعان الثقافي والتحدّي والتبشير بالعقلانية والعلمانية ـ إلى

الانزواء، وقد صُدموا بخيبات عميقة، يتراجعون.. ويتهاوون.. يعود بعضهم إلى الروحانيات.. ويعلن بعضهم إيمانه.. وينتقد بعضهم ما كان يبشّر به.. ويصمت آخرون!..

فهل مصائر هذا الرهط من المثقفين كانت ـ فقط ـ بسبب من حملات المؤسسات الدينية والعناصر الرجعية والمحافظة، واضطهادات المؤسسات الرسمية، وقيام مختلف أنظمة قمع الفكر والحريات.. ومن عدم استجابة الشعب لندائاتهم ودعواتهم؟..

ينقل د. علبي رأياً **لمحمد جابر الأنصاري** في تعليل هذه الظاهرة يقول فيه: «إن الجيل المجدِّد قد توصّل، بعد أن رأى وجه أوروبا في الشرق، ورأى أزمات أوروبا الذاتية في الغرب، ورأى أيضاً **ضعف استجابة مواطنيه** لنداءات التقدم كما تُطرح بوجهها الغربي، أن ثمة **حلقة مفقودة** في حركة النهضة العربية الجديدة، وأنه ليس بالتقدّم المادي وحده يحيا الانسان..» (ص: ٤٧٦ = نقلاً عن **الأنصاري: تحوّلات الفكر والسياسة في الشرق العربي**، ص ٤٥).. وكأن المؤلف يكتفي بتعليل الأنصاري هذا، فلا يزيد عليه!..

ويخيّل إلينا أن في سلوك طه حسين نفسه، وعدم تراجعه أو تهاويه، بعض الجواب.. أما الجواب الأهم، فلعلّه في بنية البرجوازيات العربية نفسها من ناحية، وفي أوهام هؤلاء المتأوربين ـ العقلانيين ـ بصدد طابع برجوازياتهم هذه من ناحية أخرى:

ـ البرجوازية الأوروبية حملت مشروعها الهائل (تحطيم جميع البنى القديمة المعيقة للتقدم، وإقامة النظام الرأسمالي) بوصفها الطبقة الصاعدة، المستقلّة، التي أوقدت ثوراتها في مختلف الميادين: السياسية الاجتماعية الاقتصادية العلمية الفكرية الخ.. هذه الطبقة كانت هي المثال والقدوة والحلم أمام المثقفين النهضويين المتأوربين العرب.

ـ أما «برجوازياتنا» العربية فهي، منذ البدايات، وفي إطار السيطرة **الإمبريالية**، تكوّنت كبرجوازيات **تابعة**، خانعة، اقتصادها مرتبط، تبعياً، باقتصاديات المراكز **الإمبريالية**.. أما مشروعها «التحرري» فأقصى طموحاته إقامة أنظمة رأسمالية «مستقلة في إطار التبعية».. برجوازية هجينة، من طبيعتها أن تظلّ برجوازية رخوة، متخاذلة أمام المستعمرين، ضعيفة أمام مختلف البنى القديمة، بل هي تعمل للحفاظ على هذه البنى، كجزء مكمّل وداعم لنظامها نفسه، في حين توجّه قمعها الأشدّ قسوة وشراسة وهمجية ضد شعوبها وعلى الأخص ضد قوى الحرية والتقدم في صفوف هذه الشعوب، وضد المبشّرين بالأفكار الراديكالية، العقلانية، للبرجوازية الأوروبية والثورة الفرنسية..

مثل هذه «البرجوازيات» ليس في «مشروعها»، ولا في استطاعتها، إنجاز تغيير ثوري جذري اقتصادي اجتماعي علمي ثقافي في المجتمع، حتى ولو باتجاه إرساء نظام رأسمالي ديمقراطي علماني مستقل..

ـ طلائع المثقفين المفكرين المتأوربين العرب، عاشوا طويلاً في وهمِ أن برجوازيتهم هي الشبيه للبرجوازية التي قبسوا أفكارها وتشبّعوا بمشروعها، وإنجازاتها.. ووقعوا في وهمِ أن أوروبا ـ التي تستعمرهم ـ هي هي أوروبا التي ستساعدهم (بمثالها وأفكارها وحتى بقدراتها المادية) على التحرر والتقدم؟.. وفي حين أن أوروبا تنقسم في المجتمع والفكر إلى طبقات وأحزاب، وبرجوازياتها تتحوّل إلى مستعمرين، ونظامها الرأسمالي يصير **إمبريالياً**.. وفي حين تتصاعد نضالات الطبقة العاملة في أوروبا، وتتكوّن وتنتشر أفكارها الاشتراكية، تظلّ أفكار طلائع المفكرين والمثقفين المتأوربين العرب هؤلاء على حدود أفكار الثورة الفرنسية.. يحلمون بها.. ويظلّ معظمهم حبيس هذه الحدود.. فلا يتقدّمون قليلاً إلى فكرٍ علماني جذري يوظّف الدعوة إلى التحرّر الفكري في العمل على التحرّر الاجتماعي.. بل هم يتوهّمون بأن المجتمع سوف يعتمد أفكارهم العلمانية العقلانية، وباعتماده لها سوف يتطوّر ويصل إلى النظام الذي به يحلمون!..

مأساة هؤلاء المثقفين، في جوانب أساسية منها، هي: إمعانهم في الوهم بأنهم ممثلو «برجوازية» تشبه برجوازيات أوروبا، في مرحلة الصعود، والثورات، وتحطيم البنى القديمة.. مأساتهم أنهم لم يروا أن برجوازيتهم مخصيّة، وهي هي التي تحافظ على البنى القديمة وترسّخ للفكر الغيبي..

ـ على أن طه حسين، رغم شراسة المعارك التي خيضت ضده، لم يتهاوَ، كما تهاوى الكثيرون من مجايليه.. ذلك أن فكره لم يتجمّد عند حدود الأفكار العامة للثورة الفرنسية، بل هو يميل إلى الجانب الراديكالي من تلك الأفكار.. وهو، بنزوعه الشعبي الوطني والتحرري، ظلّ يوثّق ارتباطه بالحركة الوطنية والشعبية، مبتعداً عن **أرستقراطية لطفي السيد وهيكل الفكرية والطبقية.. ومقترباً من يسار الوفد، بل وأحياناً من بعض الأفكار القريبة من الماركسية..**

(.. **فلستُ كاتباً بورجوازياً ـ يقول طه بكلام صريح ـ وإنما أنا رجل شعبي النشأة والتربية، شعبي الشعور والغاية أيضاً.. إنني لا أحب الديمقراطية المحافظة ولا المعتدلة، ولا أقنع بالاشتراكية الفاترة، وإنما أياسر إلى أقصى ما أستطيع..**) (ص: ٤٨٧ = من **نص لرسالة بعث بها طه حسين إلى مجلة الفجر الجديد المصرية اليسارية، ونقله د. علبي عن مجلة الطريق اللبنانية، كانون الأول ١٩٤٥، وكانت قد نقلته بدورها عن الفجر الجديد.**).. **هذا** النص أملاه طه حسين في واحدة من ساعات الصفاء والانسجام مع النفس والفكر النيّر الصحيح.. قد لا يكون طه، في سنوات لاحقة، التزم تماماً هذا النهج الواضح، ولكننا نميل إلى **القول بأن**

هذا النزوع ظلّ عميقاً في التكوين النفسي والعقلي لطه حسين، حتى ولو لم يتصدّر دائماً ـ بوضوحه هذا ـ كتابات طه.. وهذا النزوع هو أحد أهمّ العوامل التي صانت طه من التهاوي والتراجع والانزواء.. بل كان فكره يستوعب الجديد باستمرار، ومواقفه ظلّت إلى جانب التقدم وعاملة من أجله.. وحتى في جداله مع الماركسيين، في الخمسينات، لم يجادلهم من المواقع الرجعية بل من مواقع التقدم، وباسمه، ومن أجل إعادة أصدقائه الماركسيين ـ في أسلوب تعاطيهم مع فنّية العمل الأدبي والفنّي، ومسألة علاقة الأدب بالشعب وبالسياسة ـ «إلى جادة الصواب».

سؤال التراث.. والعصر:

في خاتمة هذا الكتاب، الذي طالت جولتنا فيه وحوارنا معه ـ ربما لشموليّته وكثرة قضاياه المثيرة للجدل ـ يطرح د. علبي على نفسه، وعلى القراء، سؤالاً مهمّاً حول هذا **الامتزاج** في كيان طه حسين بين الثقافة الاسلامية العربية التراثية وحضارة الغرب الليبرالي: **فهل أتيح لطه الوصول ـ نتيجة هذا الامتزاج ـ إلى «مركّب إبداعي مبتكر وأصيل»؟**

ولعلّ د. علبي يرى ـ حسب منطق كتابه هذا ـ **أن** جواباً موضوعياً مفصّلاً وعلمياً عن هذا السؤال يحتاج إلى مسح علمي لآثار طه حسين الكاملة كلها، وعلى الأخص تلك الأعمال التي أنجزها ما بعد المرحلة الباريسية (سواء دراساته الإسلامية التي بحث فيها عبر مناهج غربية عقلانية حديثة، أم دراساته في الحضارة الأوروبية التي كان ينظر فيها بعين إنسان عربي يريد لشعبه أن **يعرف**، وأن يستخدم ثمار المعرفة الأوروبية في **نهضته**) **هذه المرحلة** بالذات هي المفترض أنها ستكوّن الجزأين الآتيين من **هذا المؤلّف** الضخم، الذي بلغ تعداد صفحات جزئه **الأول فقط ٦٠٠** صفحة.. «ففي البال ـ يقول الصديق أحمد علبي ـ **أن نمضي في** متابعة الشوط وعدم التوقّف **مع طه في منتصف الطريق**».

إضافة:

وبعد.. كم هو صعب، **وربما كان من أصعب الأشياء، أن** نكتب في نقد مؤلفات **الأصدقاء.. فعند كل منعطف، يتمنّى الناقد** أن يكون رأيه **متطابقاً** مع رأي المؤلف، صديقه، **وأن لا يعثر على ما يظنّه** خطأ هنا وحكماً غير صحيح **هناك، إغفالاً** لمسألة **أساسية هنا وضعفاً** في المعالجة هناك.. **صعبٌ جداً الشعور بأنك «تحاكم»** **الأصدقاء.**

ولكن، عندما تنتهي من «محاكمة» كهذه، وتقارن بين أوراقك وهذا المؤلّف الضخم والجهد الفكري والعضلي الذي بذله المؤلف في كتابته على مدى سنوات وسنوات.. تشعر بأسى.. **وتلمس** كم أن النقد سهلٌ سهل، والتأليف هو الصعب وهو المضني وهو الأجدى.. خاصة إذا كانت نتيجة **التأليف كتاباً** بهذا الحجم وهذه الشمولية وهذا الغنى.. ويحمل وعداً، نثق أنه سيتحقق، بكتابين شموليين آتيين...

دار الآداب تقدم

وردة الندم

شعر

شوقي بزيع

قصائد خائفة

شعر

جودت فخر الدين